المحاضرة الثانية

ثقافة الذوق

دراسة المصادر الادبية . الانفراد بالرأي في الادب

ما أظن انكم تسيئم ما حدثتكم به في الاسبوع المنصرم ، ما أظن انكم تسيئم أفق الادب وفعله وغايته ، اني اعتقد الاعتقاد كله ان مطافكم في هذا الافق الفسيح يوطيء لكم السبيل الى الاحاطة بروح وطنكم وعبقريته ، واذا قلت روح لوطن وعبقريته عنيت بذلك ثمرات قرائحه ونتائج خواطره من منبثق فجره الى يومنا هذا . اني اعتقد الاعتقاد كله ان المطاف في هذا الأفق يدخل السرور على القلوب ويشقف البواطن و يهذب العواطف وليس بقليل ان ينسلخ المرء من حيوانيته ويحلق في جو أعلى من جو البشرية والادب هذا فعله في الامم . فاذا كانت غايته مجردة وثقافته خالصة نجم واثر : هذا أفقه ، وهذا فعله ، وهذه غايته . ما اظن انكم تسيئم شيئاً من ذلك .

غير اني أتوقع بعد ان بينت لكم أفق الادب وفعله وغايته على سبيل الايجاز وعلى قدر ما سمح به الزمن ، غير اني أتوقع ان تقولوا لي : أدركنا هذا كله ، ولكن كيف السبيل الى ذوق لذة الادب ، كيف السبيل الى الاتصال بهذا الافق والعلم بهذا الفعل والخلوص الى هذه الغاية ، ولو قلتم لي شيئاً من ذلك لوقع القول مني موقعه لان السر كل السر في تمهيد هذه السبيل قال الاستاذ لانسون :

« لا أكاد أفهم كيف يدرسون الادب من دون ان تكون غايتهم في دراسته ثقافتهم وحدها ، لا أكاد أفهم كيف يدرسونه من غير ان يكون مرمى فكرهم الالتذاذ بالادب ، لا ريب في ان الذين يتفرغون لتدريس الادب يلزمهم ان يجمعوا معارفهم في نظام واحد وان يهيئوا طرائق في التدريس وان تكون وجهتهم أصح وأوضح من وجهة هواة الادب الصغار . ولكننا لا ينبغي لنا ان نذهل عن امرين : الامر الاول ان أستاذ الادب الذي لا يعنى بتنمية الذوق الادبي في تلاميذه ولا يستميلهم الى ان يبحثوا كل حياتهم في الادب عما يشحذ افكارهم و يسليهم عن همومهم لا يكون أستاذاً صالحاً ، هذا هو الهدف الذي يجب علينا ان نرمي اليه لا ان نعد للطلاب جوابات الى يوم الامتحان ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والامر الثاني لا يستطيع أستاذ الادب ان ينفع بتدريسه ان لم يكن هو نفسه من هواة الادب قبل ان يكون من العلماء ، لا يمكن ان يثمر تدريسه اذا لم يبدأ بتثقيف نفسه بهذا الادب الذي ينبغي له ان يجعله ثقافاً لغيره ، لا يمكن ان يؤدي تدريسه الى الخوائم الحسنة اذا كان نقب عن الآثار الادبية وجمعها ، ولم تكن غايته في تنقيبه وجمعه زيادة ادراكه للادب وزيادة لذته بعد هذا الادراك » .

ما أصح هذا الكلام ! ما ألصقه بالحقيقة ! الاستاذ الذي لا يعنى بتنمية الذوق الادبي في تلاميذه لايكون أستاذاً صالحاً ، تنمية الذوق هذا هو هدف الاستاذ وعلى حسب ذوقنا الادبي يكون شعورنا بالجمال . واحساسنا للقبح ، على حسب هذا الذوق يكون ادراكنا لمحاسن العالم ومقابحه ، فاذا فسد ذوقنا الادبي ضعف شعورنا بجمال العالم وبهجة الحياة ، اذا فسد هذا الذوق انقلبت أضواء الحياة ظلمات بعضها فوق بعض ، وما انحط الادب الا لفساد الذوق ، أصبحنا في عصر لا نستطيع التمييز فيه ، تعرض علينا الآثار الصالحة فلا نهتدي الى التلذذ بصلاحها ، وتعرض علينا الآثار الفاسدة فلا ننقبض عن مواضع فسادها ، ولو سلم ذوقنا لتيقظ فينا الشعور بمتاعة الآثار وشناعتها ، فما كل اثر من هذه الآثار الادبية فاسد قبيح ، ولا كل واحد منها ماتع جيد ، فالذوق وحده هو الذي يهدينا سواء السبيل في التمييز والاستاذ هو الذي يقوي فينا هذا الذوق . تثقيف الذوق الادبي هذا كل شيء في الادب .

وقبل ان أبين كيف يستطيع الاستاذ ان يروّض تلاميذه على ذوق لذة الافكار أحب ان انظر في الامر الثاني الذي أشار اليه (لانسون) اي أحب ان أبين ان أستاذ الادب الذي لا يكون من هواة الادب لا يستطيع ان يثقف ذوق تلاميذه ، فالادب شيء وعلم اللغة شيء آخر وقد يجوز ان يضرب الاستاذ في اللغة بالسهم الفائز وان يأخذ منها الحظ الاوفر ولا يكون في هذا كله ادبياً ، اي لا يعرف اماكن الجمال ومواطن القبح في آثار اللغة الخالدة فاذا خرج الاستاذ عن ان يكون أديباً ، اذا لم يستطع ان يذوق لذة الجمال أعقم التدريس وأفسد الاذواق ومتى فسد الذوق فسد كل شيء في الادب ، أستاذك ذوقك : هذه كلمة (فولتير Voltaire) .

قلت : تثقيف الذوق الادبي هذا كل شيء في الادب ، فكيف يثقف هذا الذوق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويقوم ، كيف يدرب على التمييز في الآثار الادبية ، هنا العقبة الكؤود ، وهنا يظهر ضعفنا وينكشف أمرنا . سئلت مرة عن رأيي في أساليب طلاب (البكالوريا) في الانشاء ، فقلت بعد التمحيص والتدقيق في جملة ماقلت : ان الطلاب لم يتعمقوا التعمق كله في الموضوعات التي طرحت عليهم ، فقد كانت أفكارهم سطحية على انهم كانوا يستطيعون بفضل ثقافتهم العامة التعمق في الموضوعات والذنب في ذلك يرجع الى أساليب التدريس فلم ينظر الطلاب في كتاباتهم نظرات عامة اي انهم لم يبحثوا عن كاتب اوشاعر على وجه عام او عن نتائج عصر من العصور على صورة عامة ، او عن التطور الادبي في خلال العصور ، ان الاساتيذ لا يدربونهم على التفكير ولا يعودونهم ان تكون لهم أفكار عامة في موضوعات حديثة . وجملة القول ان تدريس الادب ينقصه الشيء الكثير فهو لا يستند الى دراسة المصادر الادبية نفسها اي الى دراسة كلام المؤلف اوشعر الشاعر او خطبة الخطيب فان تفسير هذه المصادر هو المعتمد عليه في تدريس الادب والظاهر ان هذا النقص ذاته كان في مدارس فرنسة حتى جاء في بلاغات وزارة معارفها سنة ١٩٠٢ ان تدريس الادب يجب ان يكون أساسه درس المصادر الادبية نفسها .

المعول عليه من كلامنا هذا درس المصادر الادبية لان هذا الدرس هو الذي يقوم الذوق فكيف تدرس المصادر الادبية ، كيف يشرح كلام الكتاب وشعر الشعراء هذا الذي نحوم عليه ونلوب فلا نكاد نصل اليه ، فقد كنا ولا نزال اذا شرحنا شعراً نتوخى تفسير الغريب من هذا الشعر واعراب المشكل من تراكيبه والتنبيه على مذاهب الاستعارات والكنايات وسائر فنون المجاز هذا شيء وليس بكل شيء ، ان التفسير اللغوي قد يولد فينا ميلاً الى معرفة مفردات اللغة ولكنه لا يولد فينا ذوقاً أدبياً اسيء لا يقوي فينا الشعور بالجمال . واللغة كما قلت شيء والادب شيء آخر ، وكثير من علماء اللغة أنفسهم لا ذوق لهم في الادب .

ان هذه المصادر الادبية التي نتفرغ لدراستها تشتمل على امور غير امور اللغة وآلاتها ان هذه المصادر انما هي آثار ناطقة يظهر على كل واحد منها روح صاحبه وفكره وعاطفته فتدلكم على آثار العصر والبيئة فيها او تنبهكم على آثارها في هذا العصر وفي هذه البيئة وتكشف لكم عن اهواء صاحبها وانفعالاته . فاذا اردتم ان تعرفوا شيئاً من روح الشاعر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن فكره ومن عاطفته فان التفسير اللغوي لا يضمن لكم الوصول الى هذه المعرفة ولكنه يعينكم عليها فاستنطقوا المصادر الادبية واسألوا كلام المؤلف وشعر الشاعر وخطبة الخطيب فان من وراء هذا كله اشخاصاً ينطقون و يشعرون فاذا خالطتم هذه المصادر وماز جتموها احطتم بظواهر اصحابها وبواطنهم واتصلتم باسرارهم والغازهم فعرفتم خصائصهم وطبائعهم واهتديتم الى اخلاقهم واوضاعهم فنشأت في انفسكم من هذا كله لذة منقطعة النظير ومن هذا يتبين لكم انه لابد لكم من الاحاطة بعلم النفس حتى تستطيعوا ان تمضوا القول في روح الشاعر وفي عواطفه .

قلت : المصادر الادبية تدلكم على آثار العصر والبيئة فيها او تنبهكم على آثارها في هذا العصر وفي هذه البيئة وهذا معناه انه لا بد لنا من معرفة العصر الذي نحاول درس شاعر من شعرائه فلابدلنا من معرفة مصطلحات هذا العصر والافكار التي ولدها هذا الشاعر في عصره والعواطف التي ايقظها فاذا كنا مثلاً ندرس المتنبي ووقع نظرنا على اسلوب غريب في شعره اوعلى لفظ غريب فلا يصح ان نجزم ونقطع قبل ان يتحقق عندنا ان هذا الاسلوب غريب قياساً الى عصر المتنبي اذ انه قد يكون غريباً في عصرنا ومأنوساً في عصر ابي الطيب .

يستنبط مما تقدم اننا ينبغي لنا ان نستعين بالمصادر الادبية نفسها على فهم روح صاحبها وافكاره وعواطفه فاذا استطعنا ان نفهم شيئاً من ذلك نشأ فينا ذوق ادبي ومتى نشأ هذا الذوق وكان سليماً خالصاً شعرنا بمحاسن الآثار الادبية وبهذا الشعور تزداد لدينا بمحاسن العالم نفسه على اننا لانستطيع ان ندرك حقائق المصادر الادبية الا اذا كنا منفردين بامر البحث والتنقيب فلا ينبغي ان يكون لغيرنا تأثير فينا ، لا ينبغي لنا ان نكرر كلام غيرنا على اثر من آثار الادب فاذا فعلنا شيئاً من ذلك كانت دراستنا الادبية جامدة لا روح فيها . —

قال الاستاذ « لانسون » :

« اذا حاولت ان اتصور خصائص المؤلفات وطبائع اصحابها امتنعت عن تخليص آراء من اولعت بهم من الاساتذة في هذه المؤلفات اشباه « تين » و « سانتبوف » و « غاستون باري » و « برونتير » فالاولى لي وانا اخوض في موضوع ليس فيه حقيقة مبنية على اصول مستندة الى عقل ان ألخص ما انشأته في قراءة هذه المؤلفات من الانفعالات وما اخطرته

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ببالي من الآراء وما اهتديت اليه من صيغ فكر المؤلف وعاطفته ، وعلى هذه الصورة وحدها تكون الدراسة صادقة ، فيها روح اذ انه لا يستطيع احد ان يستميل غيره الى الامور التي يخوض فيها الا اذا استعان على ذلك بالذوق الذي ذاقه هو نفسه في هذه الامور » .

هذا ما قاله لانسون ومن قوله هذا يتبين لنا اننا اذا اردنا الكلام على المتنبي مثلاً لزمنا ان ندرس شعر المتنبي نفسه دون ان نردد ما قاله فيه بعض الاساتذه كالثعالبي والجرجاني وغيرهما ، اذا اردنا الكلام على حس المتنبي لزمنا ان ندل على مواطن هذا الحس وعلى طبائعه من دون ان نستعير كلام غيرنا والخلاصة اذا حاولنا دراسة المتنبي وجب علينا ان نقرأ شعره وندون الآثار التي تركها فينا هذا الشعر وننقل هذه الآثار الى غيرنا حتى يكون في كلامنا شيء من الروح والحياة وعلى هذا ينمو ذوقنا في الادب ومتى نما هذا الذوق نما معه الشعور بالجمال .

اني لا ارى اضل سبيلاً من الذين لا يريدون ان ينفردوا بآرائهم في الادب . وعلى الخصوص بعد ان عرفنا ان الادب ليس فيه حقائق مبنية على اصول مستندة الى عقل اي ليس فيه شيء من حقائق العلم الثابتة وانما الادب يتبع الذوق والعاطفة فتتغير آراء الناس فيه بتغير اذواقهم وعواطفهم انظروا مثلاً الى «فيكتور هوغو» فقد قال فيه « فاكه Faguet » « هوغو من الخالدين لان جمال الاسلوب هو الذي يخلد » وقال فيه اناتول فرانس : « ان مجد الشاعر الذي احتفل امس آخر احتفال بوفاته يأتي عليه اليوم دهر صعب حرج لقد ذهب اعجاب المعجبين به الذين كلوا واعيا بعد ان جهدوا في ذلك الاعجاب خمس عشرة سنة ، وتبددت طائفة من الاوهام فقد كانوا يظنون ان شاعراً كبيراً فكر اكثر من ذلك » . انظروا الى تناقض هذين الرأيين في شاعر مثل « هوغو Hugo » ومنه يتبين لكم قلق الادب واضطرابه فاذا كان الامر كما وصفنا فما أجدر الذين يريدون ان يذوقوا لذة الادب بالانفراد بآرائهم دون ان يكون لغيرهم سلطان عليهم .

هذا ما حاولت تقريره في هذا المجلس وما أريد ان أبسط القول اكثر من ذلك ، ولئن كانت خلاصة حديثنا الاول : الادب روح الوطن وعبقريته ، فخلاصة هذا الحديث تثقيف الذوق هو الذي يضيء لنا الظلمات حتى ندرك روح هذا الوطن وعبقريته .

في ١٦ تشرين الثاني سنة ١٩٢٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net